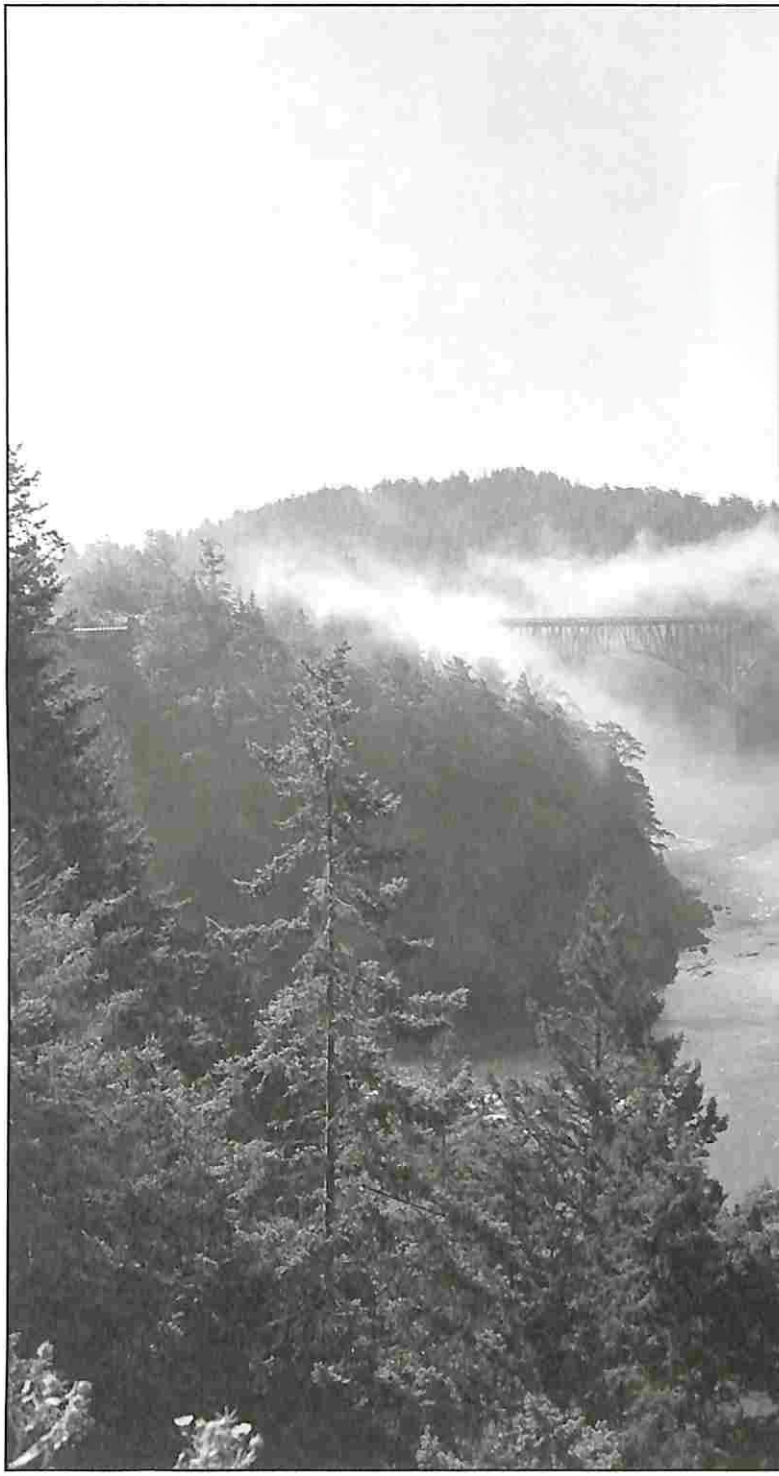

ملامح جيل الصحوة في شعر محمود مفلح

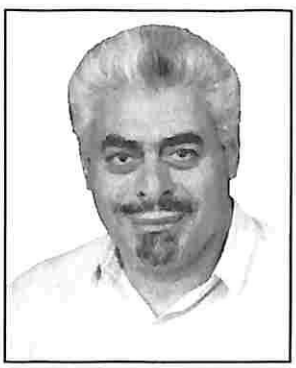

بقلم: د. خليل أبو ذياب
فلسطين

ثمر بالأمم في العادة فترات قاتمة تخلف تراكمات قاتمة في السلوك والأخلاق والقيم تشبه نكتا سوداء في إهاب أبيض.. وكلما ازدادت هذه التراكمات وأنست بها الأمة وراضت نفسها على قبولها، ازدادت تلك النكت لتصبغ الإهاب كله أو أغلبه، وعندئذ يغدو كل ما كان مرفوضا من قبل مقبولا لدرجة الفرض أو العرف، وكل ما كان شاذا أصلا لا مندوحة عنه أو عادة مقررة لا سبيل إلى الخلاص منه أو تبديلها.. وهكذا تتبدل القيم والعادات والأخلاق والدين والسلوك في أية أمة عندما تبدأ مرحلة التغير بمحاولة تأتي على استحياء في بادئ الأمر لتعترض على أمر ثابت أو سائد أو موروث، ثم تستشري المحاولات عندما تجد حظا من القبول خاصة وأن الناس مفطورون على حب التغيير وعدم الثبات، والتحلل من الالتزام والإلزام وتبعاته المرهقة!!

بيد أن فئة مفطورة على الخير - قلت أو كثرت - تظل رافضة لهذا الانقلاب متشبثة بموروثاتها الخُلقية والدينية، داعية ملحة في الدعوة إليها، ويهدي بها الله القلوب الخيّرة والنفوس المؤمنة لتبدأ مسيرة العودة إلى المنابع النقية محتملة ما شاء الله لها من ألوان العناء والشقاء والعذاب صابرة محتسبة كل ذلك عند الله.. وتتواصل هذه النفوس وتلك القلوب لتشكل ما يمكن أن يطلق عليه "جيل الصحوة" الذي يحمل على عاتقه أعباء الدعوة إلى الخير والحق والجمال الذي طال توق الأمة إليه، والخلاص من الشر والفساد والسوء الذي استشرى في الأمة وضرب بجذوره في رحمها. ومن هنا كانت رسالة هذا الجيل ومهمته بالغة الخطورة،عظيمة الشأن ، جليلة القدر!!

وقد استطاع شاعرنا الإسلامي محمود مفلح أن يرصد ملامح هذا الجيل/جيل الصحوة في جوانب شعره رصداً يجسد عمق معاناته من واقع الأمة الإسلامية بكل سلبياته ومساوئه، ويكشف عن رغبته الأكيدة في تغيير ذلك الواقع المؤلم!!

وإذا رجعنا إلى ما بين أيدينا من دواوين الشاعر نتحسس ملامح جيل الصحوة فإننا نجد تلك الملامح تظهر حيناً على استحياء قبل أن تتبلور نظرة الشاعر وتتحدد رؤيته على نحو ما نجد في بعض قصائد "الراية"، وكذلك في مقدمة "المآذن" التي كانت توحي باهتمام الشاعر وتبشر بنصيب كبير في الديوان، ولكنه خلا منها خلواً تاماً لا نعلم له سبباً برغم كل الظروف المتاحة التي كانت قادرة على الإيحاء له بشيء كثير.. كما كانت في أحيان أخرى تتبدى قوية جلية، لتجسد هذه الصحوة المباركة تجسيداً رائعا على نحو ما نجد في قصائد ديواني "الصحوة" و"النقوش".. ولعل ذلك يعود إلى بروز هذه الصحوة وعمق الآثار التي خلفتها في الأمة وإثبات وجودها كحقيقة لا سبيل إلى جحودها وإنكارها في زمن الانهزام والذل والعار الذي يقود مسيرتنا..

وقد أخذت ملامح الصحوة تبرز في شعر محمود مفلح منذ ديوان "الراية" الذي حوى ثلاث قصائد تتمحور حول هذه القضية، وفيها نراه يلفت النظر إلى حقيقة الثورة التي

محمود مفلح

ينتجها هذا الثائر المقدام، وتجسد ماهيتها الإسلامية في وجه مختلف المحاولات العنيدة لطمس تلك الهوية، وتأكيد ثوريته بعيداً عن روح الدين وبمعزل عن الإسلام والعقيدة، فيقول شاعرنا مؤكداً تلك الهوية الإسلامية المشرقة:

هم يمدحونك ثائراً مقداما
ومقاتلاً متمرساً وهماما
هم يمدحونك كل شيء إنما
يتجاهلون بسيفك الإسلاما
يا ويحهم حسبوا العقيدة قصعة
إما ظفرت بها بلغت مراما
يا ويحهم جعلوك بطناً قد خوت
والمسلمين على الخطا أنعاما
قاسوا الأمور على الغرائز ليتهم
يتجاوزون بطونهم إبهاما
لو شعّ نور الحق في أحداقهم
عرفوا العقيدة منهجاً وحساما
عفواً أخي في الله تلك حدودهم
وأنا أبرئ نهجك الأسقاما
لم يدركوا أن القضية عندنا
دينٌ أغرّ يواجه الأصناما

وعقيدة كالطود تطلق خيلها

وتزيح عن درب الحياة ركاما

وما ذلك إلا لعزة الإسلام التي فرضها الله سبحانه، وأعزتها سيوف الفاتحين الأوائل الذين فتحوا الدنيا، ونشروا العدل والحق والخير بعد أن حطموا طواغيت البشر وأصنامهم المتألهة:

هي عزة الإسلام في فتكاته

هلا عرفت المسلم المقداما

هذي سيوف الفاتحين وطالما

عانت سيوف الفاتحين صياما

وانظر إلى الشاعر وقد امتلأت نفسه أملاً بالميلاد الجديد لهذا الجيل المسلم والخلاص من الكفر والشرك فيقول:

هذي عقيدتنا وذلك نهجنا

فاقرأ علينا "الفتح" و"الأنعاما"

قد آن أن تلد الليالي مسلماً

والمسلمون يبايعون إماما

قد آن أن يعلو النفير وفي دمي

صخب النفير.. متى يكون صياما؟

ويمضي الشاعر مصوراً واقع أمته الأسيف ما دامت حثالة البشر تدنس مقدساتها وتعيث فيها فساداً، يقول:

وتسربلوا بالعار في عتباتهم

ستمطرون من الذئاب سلاما

أنا من ديار القدس جئت وجبهتي

مرمى السهام، فمن يرد سهاما

قومي على درب الرياح تناثروا

أنى رميت الطرف تلقَ خياما

جرحي يغور ومسجدي في كفهم

يلهون في محرابه أعواما

نثروا لها الوعد الجميل وأسرعوا

يتعاقبون ركوبها إرغاما

وقضيتي ظلت بباب ولاتنا

عشرين عاماً تكسب الأختاما(١)

دقوا طبول الحرب في ساحاتها

لكنهم خاضوا الحروب كلاما

وكأني بالشاعر المطحون برحى الوعود ينكر أثر الحروب الكلامية التي تخوضها الأمة منذ نصف قرن وما يتفجر فيها من صواريخ الشجب وقذائف الرفض وأسلحة الاستنكار الفتاكة شأن سلفه الشاعر الكبير "أحمد فرح عقيلان" في ديوانه "جرح الإباء" حيث يقول رحمه الله:

إن ألفيُ قذيفة من كلام

لا تساوي قذيفة من حديد

وهذا نفسه ما أعلنه شاعرنا في قصيدة "حماس" حيث يقول مخاطباً طفل الانتفاضة/العقيدة:

دع عنك أوهام السياسة إنها

لغوٌ، وإن إناءها مكسور

إن السياسة لا تحرر ذرة

فالترب من سكب الدماء طهور

وتلقانا قصيدته الثانية "الشهيد" التي تجسد ممارسات البطش والإرهاب التي تصب بوحشية قذرة على هذه الفئة المؤمنة في صراعها مع تلك القوى الباغية لإعادة المنهج الإسلامي القويم وتكريس سلطانه في الأرض، وفيها يقدم لنا الشاعر لوحة واقعية دقيقة الملامح صادقة الخطوط لعمليات البطش والقمع والتنكيل التي تمارس بحق هذه الفئة.. وعلى الرغم من فظاعة هذه اللوحة وقتامها فإنها لا تبلغ مدى همجية تلك القوة الظالمة العسوفة التي يعجز الوصف عنها.. وتبدأ اللوحة بمشهد من مشاهد التعذيب الذي يصب على ذلك المجاهد في أثناء عملية الاستجواب الذي لا تراعى فيه حقوق الموقوفين في العادة ولا تحترم فيه إنسانيتهم:

انطق.. وتنهشه القيود

انطق.. ويجرحه الحديد

انطق.. ويهوي السوط.. والألم الجديد...

سحبوه في صمت الدجى.. فرشوه أرضاً.. أنضجوه على اللهيب

سكروا على دمه وجاؤوا بالمخالب والنيوب

ويمضي في رسم لوحة التعذيب مركزاً على صمود الشهيد العجيب وصبره الجميل مستحضراً سيرة سلفه الخالد بلال بن رباح الذي ذاق مرارة العذاب على أيدي جبابرة قريش المشركين فيقول:

ويدور دولاب العذاب على الجسد
وتظل صرخته "أحدْ" ... "أحدْ" ... "أحدْ"
وتمر ساعات العذاب... وينضج الجلد الطهور على المجامر
من فوقه صب الحميم وتحته زرعت خناجر
والكهرباء ترجه رجا.. وأحذية العساكر
ويظل ينطقها: "أحدْ" ... "أحدْ" ... "أحدْ"

ويستحضر تاريخ الفئة المؤمنة التي صبرت على لأواء قريش وتعذيب المشركين متأسياً بها فيقول:

وتموج في عينيه ألف قصيدة... وتمر قافلة الرجال
هذا صهيب في الطريق.. وذاك عما رٌ.. وصوت أخي بلال
إن لم يكن بك يا عظيم علي من غضب فإني لا أبالي...
هذي نسائم جنة الخلد التي عشقت وصالي
إني لأدخلها.. وأسبح في العطور.. وفي الظلال
فمتى اللقاء، متى العناق؟؟ متى أشد لها رحالي؟؟

ويركز الشاعر على ما تتركه هذه الصحوة في نفوس الناس عامة، والفئة الباغية خاصة وهي توشك أن تجرفها وتدمرها تدميراً فيقول:

لكأن كل عذابنا لغوٌ.. وكل سياط عسكرنا هزائم
ماذا سنفعل؟ ما السبيل؟ وإن هذا الموج قادم..

وجاءت قصيدته "الجهاد الكبير" تحمل البشرى بدنو بزوغ فجر الإسلام وشروق شمسه في أعقاب ليل الكفر والشرك الطويل مؤكداً أن المجاهدين هم القوة الأكيدة التي تحقق هذه الغاية، فيقول:

أنتم القوة التي تكنس الليـ
ـل وأنتم مصير هذا المصير[٢]
إن شمس الإسلام لا بد أن تطـ
ـلع فالليل في النزع الأخير
إنها جولة العقيدة في الأر
ض وهذي مواسم التحرير
إخوتي إخوة العقيدة إن النـ
ـصر آت على الجناح القدير
لا نبالي بالسجن ما دام في
عزة المؤمن القوي الجسور

وتلقانا في مقدمة ديوان "المآذن" إشارة مهمة إلى هذا الجيل الذي أخذ يثبت وجوده في الساحة الفلسطينية من خلال لقائه مع رجل فلسطيني من أهل الأرض المحتلة منذ سنة ١٩٤٨م حيث أكد له عودة الإسلام إلى حياتهم، وميلاد الحركة الجهادية المباركة وإقبال الشباب على المساجد مما أثار قلق إسرائيل، ونشر في نفسها قدراً كبيراً من الذعر ناعياً على ما يواكب هذه الصحوة من تعتيم إعلامي.. وقد كانت هذه المقدمة تبشر بحديث واسع عن هذه الصحوة، ولكن يبدو أن قصائد الديوان كانت قد ولدت قبل المقدمة والإهداء مما جعله يخلو خلوّاً تاماً من آثارها.. حتى إذا كان ديوان "الصحوة" وجدناه يسجل طائفة من ملامح هذه الحركة المباركة في الإهداء وفي ثلاث قصائد أخرى هي: ق١، ق٩، ق٢١.. فقد أهدى الشاعر مجموعته "إلى الجيل الذي تربى على مائدة القرآن الكريم" وانطلق يشق الظلام البهيم ليعانق الفجر.. فجر الإسلام العظيم.. إلى جيل الصحوة المباركة الميمونة".

ومن هنا كان المنهج الإسلامي أبرز ملامح هذه الصحوة حيث أعلن هذا الجيل التزامه به:

في سبيل الله أمضي.. وعلى هدى كتاب الله قد أحكمت نبضي

أرتدي الفجر وأمضي في سبيلي

وعلى هدي كتابي.. أبصر الأشياء من خلف الضباب

وأرى الوجه من غير قناعات.. ومن غير خضاب

وعلى هدي هذا الكتاب يرسم معالم الحاضر والمستقبل.. كما يؤكد الأمل الكبير الذي يداعب نفوس هذا الجيل بالسيادة والسيطرة وتطبيق المنهج الإسلامي القويم، وأن هذا الجيل هو جيل المستقبل الذي تحلم به الأمة وطال حلمها به، والذي يمتلك كل شيء لأنه يعيش الصحوة المباركة:

ولنا اليوم الجميل

ولنا التكبيرة الأولى، لنا الأفق، لنا الرايات والصوت البديل

ولنا السيف الذي خبأه البرق إلى اليوم الثقيل

ولنا الشجر الأخضر والماء الذي تجري إليه الطير... والظل الظليل

ولنا قارورة العطر التي تسفحها الشمس على كف الأصيل

وتتبلور ملامح هذا الجيل في قصيدته التاسعة "جيل الصحوة" حيث يقول:

وأقول للجيل الجديد

أقول للجيل المحصّن بالعقيدة والمتوّج بالصباح

وأقول يا جيل الكفاح

إنا بلونا الليل والأشباه والموت المؤجل والجراح

وأقول يا جيل المصاحف.. يا خمير الأرض.. يا طلق الولادة

ها أنت كالينبوع تدفق في صحارينا.. وتمنحنا الوثيقة والشهادة...

فقد حشد طائفة من نعوت هذا الجيل، فهو "الجيل الجديد" المحصّن بالعقيدة، وهو جيل الكفاح، وجيل المصاحف، وخمير الأرض وهو طلق الولادة، وهو الينبوع الذي تدفق بالخير في صحارينا القاحلة الجديبة..

ويستوقفنا من هذه الأوصاف والنعوت "خمير الأرض" لتذكرنا ببعض العادات الشعبية المتجذرة في ضمير الإنسان الفلسطيني، وربما غيره، عندما كانت تلصق أمهاتنا وجداتنا وعجائزنا أقراص الخميرة على الجدران بعد دخول العرائس دورهن الجديدة وما تنطوي عليه من أمل عريض بالنماء والتكاثر والاستقرار وطيب العيش كما يحدث للعجين عند وضع الخميرة فيه بتأثير البكتيريا.. ويمضي شاعرنا مجسداً آماله الواسعة في هذا الجيل الذي:

... سيبدل الأحزان والأوزان.. يزرع في العيون نخيلها

والذي يقتات جمر المرحلة فيقول له:

يا أيها الجيل الجديد... ويا سليل الطهر... يا برد اليقين

كن باسم ربك قلعة للخائفين... ومنهلاً للظامئين

وكن رصاصاً... كن قصاصا

وواضح أن الشاعر من خلال هذا الحشد الواسع لملامح جيل الصحوة ونعوته المشرقة يجسد عمق المعاناة التي تملأ نفسه من آثار الإحباط والانهزام والهوان الذي صنعه الواقع العربي والإسلامي المخجل في هذا العصر، فيقول:

يتساقطون على الطريق تباعا

يهوي الشعاع فيستحث شعاعا

يتساقطون وكلهم نجم الهدى

كم ذا أضاؤوا الليل والأصقاعا

عصفت بهم ريح الطغاة فشردوا

لكنهم ركبوا الطريق سراعا

مال الزمان بهم فلم يتزعزعوا

وأمضّهم فاستقبلوه قلاعا

ضربتهم الأيام أشرس ضربة

لم تحن هاماً أو تفلّ ذراعا

وتسلّحوا بالعاديات إلى الذرا

"والفتح" تملأ نبضهم إيقاعا

في الليل تُسمعهم رفيف ملائك

ومع النهار يقارعون قراعا

ما ودعوا درب الجهاد ولم يكن

سيف الجهاد لغيرهم مطواعا

وما ذلك إلا لما تخلّق به هذا الجيل من خُلُق القرآن وما التزم به من هدى العقيدة، واستضاء به من نور الإيمان:

لولا العقيدة في القلوب تفجرت
لرأيتهم كسواهمُ أتباعا
لكنه الإيمان يصقل عزمهم
ويريك من وثباتهم أنواعا

وطبيعي أن يرفض هذا الجيل في ضوء المنهج الإسلامي القويم مبادئ القهر والبطش والقمع وسياسة التجويع التي يمارسها طواغيت العصر بكل عنف ووحشية..

وتتبلور هذه الملامح بصورة دقيقة في ديوان "النقوش" تحس معها فرط عناية الشاعر وعمق إحساسه بهذه الصحوة المباركة حيث يطالعنا في مقدمته بطائفة من أقوال القادة اليهود تجسد مخاوفهم البالغة من تلك الصحوة التي ما كانوا يحسبون لها يوماً حسابا، منها ما أعلنه إسحاق رابين قائلاً: "إن ما يثير القلق بالفعل هو تعاظم قوة التيارات الدينية في يهودا والسامرة (الضفة الغربية وقطاع غزة)، وإننا نخشى أن يتحول الأمر إلى صراع ديني"، وكذلك ما أكده مناحم بيجن من "أن المشاعر الإسلامية المتنامية هي الخطر الأكبر الذي يتهدد إسرائيل الآن"، وما أفصح عنه قائد قوات الاحتلال في الضفة عمران ميسناع مؤكداً "أن ظاهرة اليقظة الدينية في الضفة والقطاع تنذر بالخطر وتشكل تهديداً يؤرقنا".. وقد لمست وكالة رويتر للأنباء هذا الخطر عندما أعلنت "أن الحمية الإسلامية بين صفوف المقاومة الإسلامية أصابت مسؤولي الأمن اليهودَ بالذعر"..

ومثل هذه الأقوال تؤكد تنامي الإحساس الديني والالتزام الإسلامي في صفوف الشباب الفلسطيني المقاوم للاحتلال الإسرائيلي، وقد أحس شاعرنا الإسلامي هذه الظاهرة إحساساً عميقاً دفعه إلى إهداء ديوانه النقوش إلى أطفال الحجارة/ العقيدة الذين تمثلوا المنهج الإسلامي، والتزموا به في صراعهم النبيل مع قوى البغي والإرهاب الإسرائيلي قائلاً: "إلى أولئك الذين أعادوا إلى عروقنا نبض الحياة بعد سنوات الصقيع، وإلى عيوننا النور بعد دهاليز اليأس، وفي دمائكم الزكية شممنا عبير الجنة.. إلى الأطفال الذين أمسكوا بزمام المرحلة، وأتقنوا فن الشهادة، وأبوا الموت إلا واقفين، شامخين، في أرض الأنبياء والشهداء.. أرض فلسطين.. إلى أطفال الحجارة، أرفع على استحياء كلماتي هذه"..

وطبيعي أن إحساس الشاعر بالاستحياء والخجل يجسد عمق الفوارق التي ما بينه وبين جيله وما يستشعره من خجل وانكسار، وبين جيل الصحوة الممثل بأطفال الحجارة العمالقة وما يملأ نفوسهم من عزة وأنفة وكبرياء أبت لهم أن يتردوا فيما تردى فيه جيل

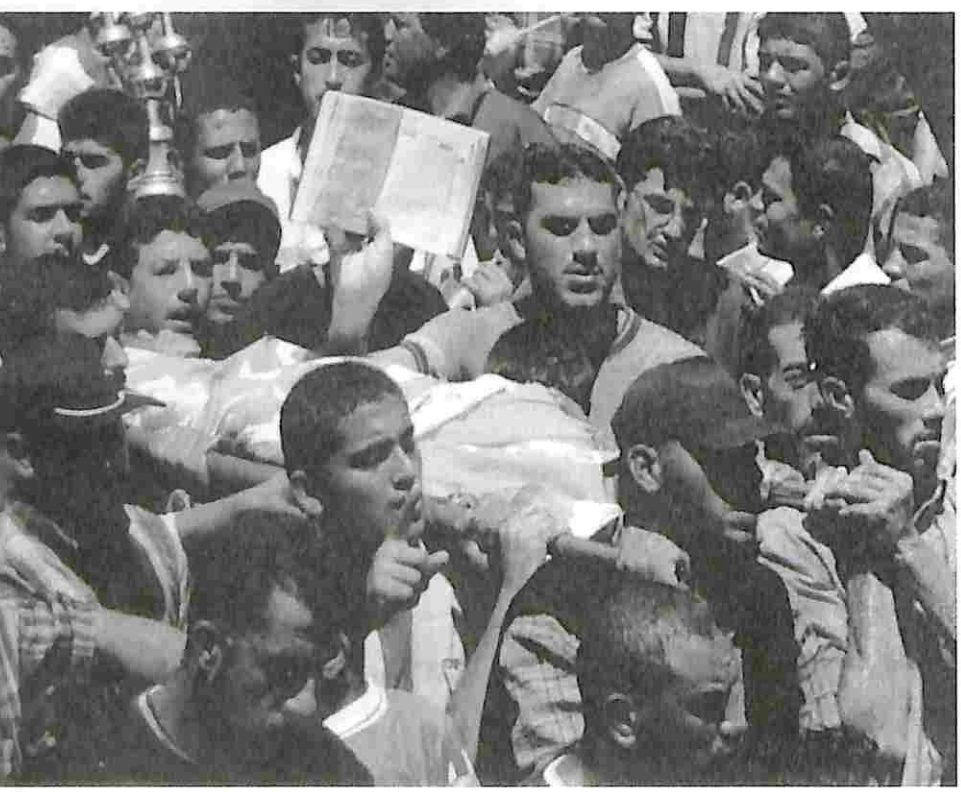

أسلافهم من ذلة وهوان وانهزام .. ومن هنا كانت قصيدته الثانية التي صوّر فيها حركة المقاومة الإسلامية في الأرض المحتلة مُنوِّهاً فيها بمنهجها الإسلامي العظيم في صراعها مع الصهاينة ورفضها لمناهج السياسة الخائبة وما تقوم عليه من أوهام زائفة.. ويتطرق إلى الواقع العربي والإسلامي مصوّراً مساوئه ومفاسده ما دام يعيش حالة القهر والبطش والقمع في ظل الوجود الإسرائيلي وسيطرته على مقدساتنا منذ زهاء نصف قرن.. وتمتلئ نفسه بالآمال العريضة التي بثتها حركة المقاومة الإسلامية في أعقاب مرحلة اليأس والإحباط والقنوط التي غمرت الأمة عقوداً طويلة من الزمان، فيهيب بها أن تواصل المسيرة الراشدة لتحقق الخلاص والنصر الذي طال إليه توق نفوس الناس بما تجود به من الشهداء الأبطال الذين يتفاوح من أجسادهم الطاهرة عبير الجنان فيقول:

شدّي حماس فأنت فجر خلاصنا
أنت اللباب وما عداك قشور
شدي ولا تصغي إلى أوهامنا
ودعي كؤوس المترفين تدور
النصر في ثغر الشهيد قصيدة
في لحنها قد أورق التحرير
إن العرائس ما تزال مشوقة
وعلى الرجال المخلصين مهور
هم في الطريق فلا تثبط خطوهم
عامان والهم الكبير كبير
أوَ لم تشمي المسك من أجسادهم
هل فاح من قبل الشهيد عبير؟

ومرة أخرى تبرز القدس لتحتل مكانتها الأثيرة في نفس الشاعر وشعره ولتشكل معلماً ملحاً على الواقع العربي والإسلامي لو كان يملك الإحساس، يبحث عن الخلاص والتحرير والتطهير من خبث اليهود ورجسهم ودنسهم.. وتتجسد هنا لوحة باذخة بما أودعها من خطوط وظلال وألوان يتوزعها مظهران متناقضان متقابلان فيقول:

القدس ما زالت تؤرّق ليلنا
ومؤذن الأقصى الأسير أسير

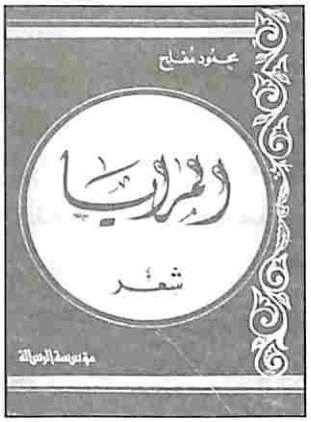

والمومسات تضج في ساحاته
لو كان في هذا الغثاء شعور
هم أحرقوه ونحن في حاناتنا
مترنحون وخمرنا موفور
وإذاعة التهريج تلقي ثقلها
في الحرب حتى مجّها التعبير

وتستوقفُ الشاعرَ الانتفاضةُ بكل منجزاتها الشامخة ولّما ينقض من عمرها أكثر من عامين ليجسد الوجه الإسلامي المشرق لها من خلال أطفال الحجارة المؤمنين الصابرين الذين تجذّروا في رحم الأرض الفلسطينية المباركة ليصنعوا لنا - نحن المنهزمين الذين استمرأنا لوك الهزائم واجترار الذل والهوان - في تلك الأرض الطيبة المباركة جذوراً تحمينا من الانقلاع والتبعثر في فضاءات الخواء والانهزام واليأس:

عامان والأشبال فوق وجوههم
ماء الوضوء اللؤلؤ المنثور
عامان والأحجار تنطق عزةً
والشمس تغلي والصدور تفور
والصامدون هناك خلف جراحهم
من قال ليس لنا هناك جذور؟

وواضح أن الشاعر يركز هنا على أطفال الحجارة/ العقيدة ويلحّ عليهم كملمح بارز من لوحة جيل الصحوة الذي أخذ يتحسس طريقه، ويعي حقيقة وجوده في زمن الانهزام والتقزّم والتبعية المرفوضة التي صنعها له طواغيت العصر..